العبـــــرة والاعـتـبـــــار
وأثر ذلك على المسلم
من خلال نصوص القرآن الكريم

د. محمد غالب حسان
عضو هيئة التدريس – جامعة جميرا– دبي
Mohammed.ghaleb@ju.ac.ae

خلاصة البحث

لا شك أن الإنسان بحاجة ماسة إلى أخذ العبرة والاعتبار حتى تستقيم حياته، وتكون العبرة فيها من العظة والتنبيه التي يستفيدها من أحداث سابقة أو أمور صالحة للاعتبار.

ومن هنا جاء هذا البحث في دراسة أمر العبرة والاعتبار من خلال نصوص القرآن الكريم، فبعد تعريف العبرة والاعتبار قام الباحث ببيان أهمية العبرة في حياة الإنسان، وأن لذلك الأثر النافع في استقامة حياته، وصلاح أمره.

وعرّج الباحث على أهمية أمر التدبر لآيات القرآن الكريم، ولا سيما أنه مجال هذه الدراسة، وجاء التوضيح بمن هو المخاطب في القرآن في أمر الاعتبار والاتعاظ، وماهي مجالات الاعتبار التي جاء القرآن بالحث على الاعتبار والعبرة فيها، وأنها مجالات متعددة، وتنوعها وتعددها دليل على أهمية الأمر في حياة الإنسان.

وختم الباحث دراسته بعدة نتائج منها: أن العبرة منهج شرعي منهج شرعي جاء الحث عليه في آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه، وأن الله تعالى خاطب الخلق بأمر العبرة والاعتبار لما فيهما من مصالح عدة للعبد في أمر دينه بل ودنياه، وأن مجالات الاعتبار في كلام الله تعالى تنوعت بين الآيات العظيمة كالشمس والقمر وبين غيرها مما هو دونها. وأن من مجالات الاعتبار المهمة النظر في قصص السالفين والاستفادة منها في حياتنا الحاضرة فالتاريخ أحداث متكررة

Research summary

There is no doubt that a person is in dire need of heed and reckoning in order for his life to be set straight, and this reckoning happens by way of lessons and warnings that are benefited from past events or affairs appropriate for taking heed from.

And from here comes this research in studying the affair of heed and reckoning through the texts of the Holy Qur'an, and so after defining heed and reckoning, the researcher clarified the importance of reckoning in the life of a person, and that it has a beneficial effect on the straightening of his life and the righteousness of his affair.

Then, moving on, the researcher clarified the importance of pondering over the verses of the Holy Qur'an, especially as it is the area of study in this research, and then followed the clarification of who exactly is the addressee in the Qur'an regarding the affair of heed and lessons, then the fields of reckoning that the Qur'an has come to encourage taking heed and reckoning from, and that they are several fields, and their variety and diversity is an evidence for the importance of this affair in a person's life.

The researcher ended his study with several conclusions, from them is: That taking heed is an islamically-legislated way that the encouragement of has come in many verses in the book of Allah -glorified be he-, that Allah -glorified be he- addressed his creation with the affair of taking heed and reckoning because of what they include of several benefits for the slave of Allah in the affair of his religion rather in his world too, that the fields of reckoning in the speech of Allah -glorified be he- varied between great signs such as the sun and the moon and other than them from things that are below them, and that from the important fields of reckoning is looking into the stories of the predecessors and benefiting from them in our present life, for history is a series of repeated occurrences

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.أما بعد:

فإن كتاب الله هو المعجزة العظيمة التي تحدى الله تبارك وتعالى بها الإنس والجن، كما قال تعالى {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨].

هذا القرآن الذي نقلته الأمة [خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ وَالسَّلَفُ عَنْ سَلَفِهِ إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَعْلُومِ وَجُودُهُ بِالضَّرُورَةِ، وَصِدْقُهُ بِالْأَدِلَّةِ الْمُعْجِزَاتِ، وَالرَّسُولُ أَخَذَهُ عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَنَقَلَ الْقُرْآنَ فِي الْأَصْلِ رَسُولَانِ مَعْصُومَانِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَنَقَلَهُ إِلَيْنَا بَعْدَهُمْ أَهْلُ التَّوَاتُرِ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْكَذِبُ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ] [١].

فكان كلّ نظر وتأمل في هذا القرآن، سواء في عقائده أو أحكامه أو عظاته وعبر، سبب لزيادة الإيمان، ومفتاح خير لكل نافع.

بل إنّه لا يوجد يقين في كتاب كما هو في القرآن الكريم، فهو يفيد اليقين في سوره وآياته، وكل متأمل له أو تالٍ لآياته لابد أن يتيقن هذا الأمر، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال ابن القيم رحمه الله:" جميع سور القرآن وآياته مفيدة لليقين بالمراد منها وإن أشكل على كثير من الناس كثير من ألفاظه فإن هذا لا يخرجه عن إفادته اليقين ولا يسلب الأدلة اللفظية عن إفادتها اليقين"[٢] .

---

[١] تفسير القرطبي (١/ ٧٢)

[٢] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٧٤٦)

وإنّ من الجوانب العظيمة التي جاء بها القرآن حاثا عليها، وموكدا لأهميتها أمر الاعتبار والعبرة، فهو مجال نافع، ومسلك ناجع، في حياة العبد العلمية والعملية، ولذلك جعلت هذا البحث المختصر في هذه المسألة معنونا له بـ:

"العبرة والاعتبار" وأثر ذلك على المسلم من خلال نصوص القرآن الكريم.

أهمية الموضوع:

أولا: أن مجال دراسة هذا الموضوع هو كتاب الله العزيز الحكيم وتشرف أي دراسة بشرف موضوعها

ثانيا: أمر الله عباده بالتدبر في كتابه، في آيات كثيرة، سواء بلفظ التدبر أو الاعتبار أو غيرهما.

ثالثا: الوقوف على كلام أهل التفسير وما سطروا من فوائد وفرائد في هذا الباب.

رابعا: حاجة الإنسان إلى أمر الاعتبار وأثر ذلك على سلوكه

خامسا: رجاء أن نكون من المتدبرين لكلام ربنا، والمنتفعين بذلك في إيماننا.

منهجية البحث:

كان منهجي في البحث على النحو التالي:

١- حرصت أولاً على جمع المراجع والمصادر التي تخص المادة.

٢- أمّا طريقة العزو في البحث، ففي نصوص الكتاب العزيز أعزو إلى السورة ثم الآية، ويكون ذلك في المتن. وفي نصوص الحديث والآثار أعزو إلى الكتاب ثم الجزء والصفحة ثم رقم الحديث أو الأثر إن وجد في الحاشية.

٣- حرصت على اختيار الأسلوب الأمثل في الألفاظ ما أمكن، واستعنت على ذلك بعلامات الترقيم المعروفة.

٤- جعلت فهرسا للمصادر والمراجع التي تم الإحالة إليها

٥- ذيّلت بحثي بفهرس الموضوعات، وقبل ذلك كله قائمة بمصادر ومراجع البحث.

٦- **وكان السير في هذا كله على خطة البحث التي التزمت بها ولله الحمد، وكان ذلك في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس، على النحو التالي:**

المقدمة : وذكرت فيها توطئة عن البحث وبيان أهميته ومنهجية البحث

المبحث الأول: معنى العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا وأهميتهما: ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: أهمية الاعتبار في حياة الإنسان

المبحث الثاني: أهمية تدبر القرآن وأثره على المسلم: ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: أهمية تدبر القرآن.

المطلب الثاني: أثر تدبر القرآن على المسلم.

المبحث الثالث: المخاطبون بالاعتبار ومجالات ذلك: ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: المخاطبون بالاعتبار في القرآن

المطلب الثاني: مجالات الاعتبار في القرآن

(الخاتمة): واشتملت على أهم النتائج.

(المصادر والمراجع).

(الفهارس) فهرس الموضوعات.

هذا وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن أكون قد وُفقت في هذا البحث المختصر، وأن يجعله خالصاً له سبحانه، وهذا جهد المقلّ، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

المبحث الأول:

معنى العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا وأهميتهما :

المطلب الأول: العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا:

والعِبْرَةُ: الإعتبار لما مضى [١].

والِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ مِنْ عَبْرِيِّ النَّهْرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِبْرٌ مُسَاوٍ لِصَاحِبِهِ فَذَاكَ عِبْرٌ لِهَذَا، وَهَذَا عِبْرٌ لِذَاكَ. فَإِذَا قُلْتَ اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فَكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ فَجَعَلْتَ مَا يَعْنِيكَ عِبْرًا لِذَاكَ: فَتَسَاوَيَا عِنْدَكَ [٢] .

والعِبَرُ: جمعُ عِبْرة، وَهِيَ كالمَوْعِظة مِمَّا يَتّعِظُ بِهِ الإنسان ويَعمَلُ بِهِ ويَعتبِر لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ. وَقِيلَ: العِبْرة الِاسْمُ مِنَ الِاعْتِبَارِ. الْفَرَّاءُ: العَبَرُ الِاعْتِبَارُ، قَالَ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ يَعبرُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْبُرها أَي مِمَّنْ يَعْتَبِرُ بِهَا وَلَا يَمُوتُ سَرِيعًا حَتَّى يُرْضيَك بِالطَّاعَةِ [٣].

والخلاصة من التعريف في اللغة أن العبرة والاعتبار يدلان على التعجب من الشيء أو أخذ عبرة منه بالنظر إليه، ويراد به الموعظة التي يتعظ بها الإنسان ويعمل بها.

اصطلاحا: تنوعت عبارات العلماء في التعريف الاصطلاحي للعبرة والاعتبار وقبل ذكر شيء من التعاريف، لا بد من التنبه أن بعض العلماء عرّف العبرة بالاعتبار لما في دلالة الكلمتين على معنى واحد[٤].

وفيما يلي ذكر شيء من هذه التعاريف :

---

١) العين (٢/ ١٢٩)

٢) (لسان العرب (٤/٢٠٩- ٢١٠).

٣) المصدر السابق (٤/٥٣١)

٤) تهذيب اللغة للأزهري (٢/٢٣٠) والعين للخليل (٢/١٢٩)

قيل الاعتبار: هو النظر في الحكم الثابت أنه لأي معنى ثبت، وإلحاق نظيره به وهذا عين القياس[١].

وقيل: هو مَعرِفة الحَقَائِق بالدّلَالاتِ [٢].

وقيل: الِاعْتِدَادِ بِالشَّيْءِ فِي تَرَتُّبِ الْحُكْمِ [٣].

وقيل: وهي الدلالة الموصولة إلى اليقين، المؤدية إلى العلم. وهي من العبور كأنه طريق يعبر إليه ويتوصل به إلى المراد[٤].

وبالنظر إلى هذه التعريفات وغيرها مما يتوافق معها لفظا أو معنى ، يظهر أن مقصود الاعتبار أو العبرة هو استفادة الحُكم والحكمة من شيء لشيء آخر، بالنظر في الدلالات وتوافق تحقق القياس في الأمرين.

---

[١] التعاريف ص٣٠

[٢] «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» (٢/ ٣٩٧)

[٣] «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» (٢/ ٣٩٠)

[٤] «تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ط دار التفسير» (١٨/ ٤٨١)

المطلب الثاني: أهمية الاعتبار في حياة الإنسان:

للاعتبار والعبرة أهمية بالغة في حياة الإنسان، ويمكن إبراز ذلك في جانبين مهمين:

الأول: التجارب الحياتية التي عاشها الإنسان، سواء من ذلك النجاحات أو الإخفاقات التي تحصل له في سيره في هذه الحياة الدنيا، فالإخفاقات هي نجاحات لمن اعتبرها دروسا وعظات، يجتنب بسبب ذلك تكرار أسباب الفشل، ويبحث عن طرق أخرى للنجاح.

والنجاحات فيها العبرة والاعتبار في الثبات على سبيل الفوز والفلاح، وبذل المزيد من الجهد في الترقية إلى المنازل العالية، وإلى مسالك البناء والنماء.

الثاني: النظر في حال غيره سواء ممن يعاصرهم فيأخذ من حياتهم وتجاربهم دروسا يستفيد منها في حياته، أو ممن سبقه من الأمم والأفراد، والتاريخ مليء بالدروس والعبر المفيدة والنافعة، فمن لم ينظر في التاريخ ويستلهم منه العبر، لن يحسن في فهم حاضره فضلا عن العمل لمستقبله، فالفطن من يبدأ من حيث انتهى الناس، لا من يبدأ من حيث بدأوا فذلك إنما هو استنزاف للجهود، وعدم استفادة من الأحداث السابقة.

ولذلك أمر الله تعالى عباده أن يسيحوا في الأرض ويتأملوا بما يكون فيه العبرة لهم، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنعام: ١١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النمل: ٦٩

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٠

وهكذا الإنسان كلما نظر في أسباب فوز السابقين المؤمنين أو أسباب هلاك المعارضين، كان له في ذلك من العبر والعظات، وما أصدق أبي العتاهية حين قال:

أين الأولى كنزوا الكُنوز وأتقنوا ... أنْ القرون بنو القرون الماضية

دَرجُوا فأصبحت المنازلُ منهم ... عُطلاً وأصبحت المساكن خالية [1]

ومنافع الاعتبار بالسالفين، يتجلى فيما يلي:

١- النظر في سنن الله تعالى في نصرته للمؤمنين، وهلاك الظالمين

٢- الاستفادة من أسباب النجاح سواء الديني أو الدنيوي في ذلك

٣- معرفة جهود السالفين من الولاة والعلماء فيما قدموه لدينهم وأوطانهم، وما صاحب ذلك من جهاد وجهود كبيرة.

٤- الاجتهاد في العمل الصالح النافع ليكون جهد زماننا تاريخا لمن بعدنا كما كان من قبلنا

إن استخلاص الدروس والاعتبار بالأحداث سواء في ذلك الماضي أو الحاضر يتفاوت الناس فيه بقدر اعتبارهم وتحليلهم لها، وكلما مروا عليها مر الكرام دون تدبر وإعمال فكر فيها، كان الانتفاع بها يسيرا أو معدوما.

[1] «المنصف للسارق والمسروق منه» (ص٢٧٥) لابن وكيع

المبحث الثاني:

أهمية تدبر القرآن وأثره على المسلم: وتحته مطلبان :

المطلب الأول: أهمية تدبر القرآن:

إن القرآن كتاب هداية للخلق، ولذلك أمر الله بتدبره ؛ إذ نتاج التدبر هو النجاة في الدنيا من فتن الشبهات والشهوات، وفي الآخرة من عذاب النار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء: ٨٢

وأصل التدبر هو: النّظر فِي الْأَمر إِلَى آخِره[1]. فقوله تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ)، يَعْنِي: أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي الْقُرْآنِ (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا)، أَيْ تَفَاوُتًا وَتَنَاقُضًا كَثِيرًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: لَوَجَدُوا فِيهِ أَيْ: فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ فَيَعْرِفُوا بِعَدَمِ التَّنَاقُضِ فِيهِ وَصِدْقِ مَا يخبر به أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا يَخْلُو عَنْ تَنَاقُضٍ وَاخْتِلَافٍ[2].

وهذا أمر واقع نلتمسه في حياتنا فلا يكاد يخلو كتاب من خطأ عدا كتاب الله تعالى، فإن هذه الكتب التي ألفها البشر هي من بنات أفكارهم بخلاف كلام المولى سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال ابن كثير رحمه الله :" يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَفَهُّمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ وَأَلْفَاظِهِ الْبَلِيغَةِ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا

[1] تفسير السمعاني (١/ ٤٥٢)

[2] تفسير البغوي – إحياء التراث (١/ ٦٦٧) بتصرف

اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابَ، وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ؛ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ" [1].

وفي آية أخرى يقول المولى سبحانه وتعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد: ٢٤

ففي الآية الأمر بتدبر القرآن، وأما قوله أم على قلوب أقفالها، فالمعنى : بَلْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، فَهِيَ مُطْبَقَة لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ[2].

ولا شك أن هذا الإقفال والإغلاق من عقوبة الله للبعد في هذه الدنيا، إذ أغلق عليه سببا عظيما من أسباب النجاة في الآخرة.

فإن من نعم الله على الإنسان أن يهبه نعمة التدبر لكلامه، والتأمل في أحكامه، والانقياد لشرعه ودينه.

قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل: ٤٤

والتدبر في القرآن هو أحد أوجه التعبد لله تعالى بكتابه الكريم. وفوائده عظيمة لا تحصر، ونافعة لاتعد.

قال ابن القيم رحمه الله :" وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر والتفكر فَإِنَّهُ جَامع لجَمِيع منَازِل السائرين واحوال العاملين ومقامات العارفين وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشوق وَالْخَوْف والرجاء والانابة والتوكل وَالرِّضَا والتفويض وَالشُّكْر وَالصَّبْر وَسَائِر الاحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله وَكَذَلِكَ

[1] تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٦٤)

[2] انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٣٢٠)

يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والافعال المذمومة وَالَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا"[1].

إنّ مما يغفل عنه كثير من الناس في عنايتهم بالقرآن أنهم يجعلوا جل عنايتهم بالحفظ والتلاوة فقط، والتلاوة مع أن فضلها عظيم ومنزلتها في الدين جليلة فقد ورد في الحديث "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ"[2]، ولكن من الأمور المهمة التي ينبغي الحرص عليها أمر التدبر للآيات القرآنية والعمل بمقتض الأوامر فيه.

ولذلك كان من تقرير أهل العلم أن أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمُونَ بِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ [3] .

[1] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٨٧)
[2] سنن الترمذي ت بشار (٥/ ٢٥) وصححه الألباني في الصحيحة ٣٣٢٧
[3] زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٢٧)

المطلب الثاني: أثر تدبر القرآن على المسلم:

سبق معنا في المبحث السابق ذكر بعض الآيات في تدبر القرآن والعناية بفهم معانيه وتفسيره، ومن أظهر الآيات الدالة على الأمر بالتمعن في آيات القرآن قول الله تعالى قَالَ تَعَالَى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء: ٨٢، ويتجلى أثر التدبر للقرآن في المسائل التالية:

المسألة الأولى: أنه امتثال لأمر الله تعالى لعباده بتدبر كتابه والنظر فيه والتمعن في آياته

فالله تعالى جعل كلامه مهيئا للتدبر والتأمل، ولذلك أمر بتدبر كلامه والنظر في معانيه، ولذلك فالمتأمل لكلامه سبحانه يمتثل أمره تعالى بذلك، فينتفع في دنياه وآخرته. بخلاف من أغلق على نفسه باب التدبر والنظر والتأمل فإنه يحرم من خير وفير وأجر كبير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله : الله تعالى قد أمرنا أن نتدبر القرآن، وأخبر أنه أنزله لتعقله، ولا يكون التدبر والعقل إلا لكلام بين المتكلم مراده به، فأما من تكلم بلفظ يحتمل معاني، كثيرة ولم يبين مراده منها فهذا لا يمكن أن يتدبر كلامه، ولا يعقل، ولهذا تجد عامة الذين يزعمون أن كلام الله يحتمل وجوهاً كثيرة، وأنه لم يبين مراده من ذلك قد اشتمل كلامهم من الباطل على ما لا يعلمه إلا الله، بل في كلامهم من الكذب في السمعيات نظير ما فيه من الكذب في العقليات [1].

وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله واضح بين في حال من استعاظ عن التدبر لكلام الله تعالى بالتقعيدات الفاسدة أو الاعتقادات الباطلة التي امتنع بسببها من

[1] درء تعارض العقل والنقل (١ / ٢٧٨-٢٧٩):

النظر والاستنباط، فأغلق على نفسه باب الانتفاع. وحرم نفسه فضل النظر والتدبر للآيات القرآنية وما فيها من الحكم والمنافع والصلاح والخير.

المسألة الثانية: أن في ذلك سلوكا لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، وطريقته في التعامل مع كلام ربه.

فالنبي صلى الله عليه وسلم جلّى لأصحابه معاني القرآن وجاءت السنة النبوية مبيّنة للقرآن مفسرة له، موضحة لمعانيه. قال تعالى {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: ٤٤] قال ابن القيم رحمه الله: وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُتَرْجِمَةٌ عَنْهُ، وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْأَحْكَامِ"[1].

والأمثلة في ذلك أكثر من أن تذكر، فالسنة مع كونها مصدر من مصادر التشريع بعد القرآن، فهي كذلك المبينة له الشارحة لكثير من ألفاظه، والمبينة لكثير من مجملاته.

المسألة الثالثة: أنه سبيل السلف وعلى رأسهم الصحابة رضي الله عنهم في عنايتهم بالقرآن علما وعلما وتدبرا.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على تدبر كلام ربهم والنظر في معانيه ، وبما يقودهم إلى العمل بأحكامه والتقيد بأوامره ، فهم أفهم الناس له، ومنهم انتفعنا في تفسيره ومعرفة الكثير من معانيه.

ومن تأمل في أمر حفظهم للقرآن وسبيلهم في ذلك، علم عظم العناية بأمر التدبر لكلام الله عندهم، قال أبو عبد الرحمن السلمي: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُمْ كَانُوا " يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

[1] الطرق الحكمية (١ / ٦١):

وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ "، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ[1].

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خُلَّصِ العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذى هو ديوان العرب، وكثير من الصحابة كان يُفسِّر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأي والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتي:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك[2]

المسألة الرابعة: أنه سبب لزيادة الإيمان وصلاح العبد واستقامة أموره:

إن أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه أن يتقرب إليه بتدبر كلامه، ومما هو معلوم أن الإيمان إنما تكون زيادته بطاعة الرحمن تعالى، والتقرب إلى الله بتلاوة القرآن هي من أفضل الطاعات وأجل القربات.

قال تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

[1] «مسند أحمد» (٣٨/ ٤٦٦ ط الرسالة.

[2] انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (١/٤٥).

مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٥، ١٦] وقال تعالى {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام: ١٢٢]

جاء عن قتادة: هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدي به في مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على الدوام. [١]

قال ابن القيم رحمه الله : لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

[١] انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ١٥٣):

وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ ضَرُورِيٌّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتُهَا، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمُطَالَعَتُهَا، فَتُشْهِدُهُ الْآخِرَةَ حَتَّى كَأَنَّهُ فِيهَا، وَتَغَيِّبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ. فَتُرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ فُرْقَانًا وَنُورًا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنٍ وَالنَّاسُ فِي شَأْنٍ آخَرَ .[1]

المسألة الخامسة: في تدبر القرآن الوقوف على دلالاته البلاغية الإعجازية:

والتي تمثّل تحديا للأساليب البلاغية والأدبيات العربية، فلا أكمل ولا أبلغ ولا أفصح من كلام ربنا تبارك وتعالى

كلام الله تعالى فاقت بلاغته كل بيان وأخرس كل لسان وأسكت كل معارض ومكابر وهدم كل مجادل ومهاتر حتى قام ولا يزال يقوم في فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه وآية من الحق لتأييد رسوله.[2]

إنّ بلاغة القرآن تتضح من حيث أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية: فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق. وهذه أقسام الكلام

[1] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١ / ٤٥٠):

[2] انظر مناهل العرفان في علوم القرآن (١ / ٢٩٦)

الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة. [1]

وهذه البلاغة هي إحدى أوجه الإعجاز القرآني الذي تحدى الله به العرب كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨

قال البغوي رحمه الله : فَالْقُرْآنُ مُعْجِزٌ فِي النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ وَهُوَ كَلَامٌ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَلْقِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ [2]

المسألة السادسة: الوقوف على عناية الله بعباده ورحمته بهم فيما شرعه من أحكام، وحدّ من حدود:

من وقف على آيات القرآن وهو يتأمل مباحث العقيدة المذكورة وتفصيلاتها وما يتعلق بالإيمان بالله والكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر وتفصيلات ذلك، وما يتعلق بمكانة الصحابة وقصصهم، ثم نظر في الاحكام الشرعية المتعلقة بالطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج وتفصيلات ذلك كله، ونظر في فقه الأسرة من النكاح والطلاق والميراث وتأمل في تفصيلات دقيقة في ذلك، وعرج على الأحكام في البيوع والمحرمات وعموم المعاملات، وغير ذلك من الأحكام. من تأمل في ذلك وغيره وجد عناية الله تعالى بعباده وكيف أنه سبحانه بسط لعباده أسباب سعادتهم، ودلّهم على ماهو خير لهم في الدنيا و الآخرة.

وصدق الله تعالى إذ قال:﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]

[1] انظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (١ / ١٠٢)

[2] «تفسير البغوي – طيبة» (٥/ ١٢٧):

المسألة السابعة: تأمل ما تضمنه القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم

وأخذ العبرة من ذلك: فهذا أحد ما تضمنه القرآن، أخذا للعبرة والعظة من هذه القصص الصادقة الصحيحة التي لا شك فيها.

فالقرآن تضمن حالين من أحوال الناس في القصص المذكورة:

أحوال السَّالكين: وهم قَصَصُ الأنبياء والأَوْلياء، كقصة آدمَ ونوح، وإبراهيمَ وموسى وهَارون، وزكريا ويحيى، وعيسى ومريَم، وداودَ وسُليمان، ويونُسَ ولوط، وإدريسَ والخَضِر، وشُعَيْبَ وإلياس، ومحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجبريلَ وميكائيلَ والملائكةِ وغيرِهم.

وأما أحوالُ الجاحدين والنَّاكبين: فهي كقَصَصِ نمرودَ وفرعون، وعادٍ وقَومِ لوط، وقَومِ تُبَّع، وأصحابِ الأَيْكَة، وكفارِ مَكَّة، وعَبَدَةِ الأوثان، وإبليسَ والشياطينَ وغَيرِهم؛ وفائدةُ هذا القسم التَّرهيب والتنبيه والاعتبار[1].

وتكررت هذه القصص في مواطن عديدة وفائدة ذلك ما ذكره أهل العلم من أن من اطلع على موضع منها كان فيه ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم ذلك بعضه إلى بعض اجتمع فيه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السور فسبحان من جعله حجة باهرة وبرهانا قاطعا على صدق الآي به، وصراطا مستقيما ونورا مبينا [2].

المسألة الثامنة: اجتناب الأفهام الباطلة لمعاني القرآن الكريم:

من سلك التدبر والاتعاظ بمسالكه الصحيحة في فهم كلام الله تعالى ومعرفة معاني آيات القرآن، كان ذلك سبيلا إلى معرفة الحق والوقوف على الصواب، واجتناب الاختلاف لا سيما اختلاف التضاد في ذلك.

---

[1] «جواهر القرآن» (ص٣١):

[2] انظر: «البرهان فى تناسب سور القرآن» (ص٣٢٣).

فينظر في تفسير كلام الله تعالى بكلامه سبحانه أولا ثم بما ورد عن نبيه صلى الله عليه وسلم ثم بأقوال الصحابة فأقوال التابعين فأوجه اللغة، فهذه المراتب الخمسة المهمة في ذلك ولا يجوز تجاوزها بغير مقتضى أو برهان.

إن هذه التأثر إنما هو بما تدبر به الإنسان كتاب ربه فأحدث في قلبه من الأثر، فتوجهت جوارحه إلى عمل الصالحات ومفارقة السيئات والحرص على الخيرات.

فحظ القلب الاتعاظ والتأثر والانزجار والائتمار. فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ [١]

[١] انظر: «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» (١/ ٢١١)

المبحث الثالث :

المخاطب بالاعتبار ومجالات ذلك

المطلب الأول: المخاطب بالاعتبار في القرآن الكريم:

خطاب الله الشرعي إنما يكون للمكلّفين من الجن والإنس، وجميع التكاليف والأوامر الواردة المقصود منها الامتثال والعمل، فليس في كتاب الله تعالى ما أنزل زيادة لا فائدة منه أو عبارات لا مقصود منها، ومن نظر إلى الخطابات الموجهة في القرآن وجدها متجهة إلى طائفتين:

أولا: عموم الناس:

إن التأمل في الخطاب وما تضمنه من الدلالات في كلمة العبرة والاعتبار في القرآن، يجد أن هذا الخطاب قصد المؤمنين وغيرهم، وجميعهم منتفعون بذلك

فمثلا في قوله تعالى { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} [النحل: ٦٦]

ففي هذه الآية حُجَّةٌ وَمِنَّةٌ مِنَ الْمِنَنِ النَّاشِئَةِ عَنْ مَنَافِعِ خَلْقِ الْأَنْعَامِ، أُدْمِجَ فِي مِنَّتِهَا الْعِبْرَةُ بِمَا فِي دَلَالَتِهَا عَلَى بَدِيعِ صُنْعِ اللَّهِ ، وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ هُنَا أَنَّ بِأَلْبَانِ الْأَنْعَامِ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ بِمَاءِ السَّمَاءِ، وَأَنَّ لِآثَارِ مَاءِ السَّمَاءِ أَثَرًا فِي تَكْوِينِ أَلْبَانِ الْحَيَوَانِ بِالْمَرْعَى، وَاخْتَصَّتْ هَذِهِ الْعِبْرَةُ بِمَا تُنَبِّهُ إِلَيْهِ مِنْ بَدِيعِ الصُّنْعِ وَالْحِكْمَةِ فِي خَلْقِ الْأَلْبَانِ[1].

إن التأمل في هذه المخلوقات والحكمة من خلقها، ليزيد المؤمن إيمانا، ويدعو غير المؤمن إلى الإيمان بالله تعالى والاهتداء بهديه والعمل بمقتضى شرعه وأمره.

[1] انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٩٩)

ففي الأنعام على اختلاف أنواعها من الفوائد الشيء الكثير ومن ذلك: الاستفادة من البانها وجلودها وأصوافها ولحومها، ومنذ لك الحمل عليها والانتقال على المناسب منها، وفي كل فائدة من هذه الفوائد مجال للاعتبار والاتعاظ.

ومن ذلك قوله تعالى : {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} [النور: ٤٤]

جاءت هذه الآية في سياق ذكر قدرة الله تعالى فإن ما قبلها هو قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} [النور: ٤٣]

قال ابن جرير الطبري رحمه الله:" إنّ في إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودق، ومن السماء البردَ، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظةً لمن اتعظ به. ممن له فهم وعقل; لأن ذلك ينبئ ويدلّ على أنه له مدبّرا ومصرّفًا ومقلبا لا يشبهه شيء"[١].

إنّ هذه الآيات الكونية العظيمة التي يراها كل الناس في الكون الفسيح هي دلائل باهرات وبراهين عظيمة على قدرة الخالق، وهي سبيل للإيمان به تعالى.

فمن الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها [٢].

[١] جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٢٠٣)

[٢] انظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، عبد الرحمن بن سعدي ص٣٩ مكتبة المعارف ١٤٠٢هـ

قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين بما يتضمنه النظر في الكون والتأمل في المخلوقات فيه {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣]

قَالَ عَطَاءٌ: فِي الآفاق: يعني أقطار السموات وَالْأَرْضِ، مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ وَاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَالرِّيَاحِ، وَالْأَمْطَارِ، وَالرَّعْدِ، وَالْبَرْقِ، وَالصَّوَاعِقِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالْجِبَالِ، وَالْبِحَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ لَطِيفِ الصَّنْعَةِ، وَبَدِيعِ الْحِكْمَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ «١» . حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [١].

ومن الآيات التي تدعو عموم الناس إلى التفكر والاعتبار قوله تعالى :{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: ١١١].

جاءت هذه الآية في سياق ذكر قصة يوسف عليه السلام ، وأما العبرة فيها فمن وجهين: أحدهما: ما جرى ليوسف من إعزازه وتمليكه بعد استعباده، فإنَّ من فَعَلَ ذلك به قادر على إعزاز محمّد صلّى الله عليه وسلم وتعلية كلمته. والثاني: أن من تفكَّر، علم أنّ محمّدا صلّى الله عليه وسلم مع كونه أمّياً، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة مِنْ قِبَل نفسه، فاستدل بذلك على صحة نبوَّته[٢].

والعبرة هنا لأصحاب العقول السليمة ممن لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم أن تقوده هذه القصة إلى الإيمان بالله ورسوله والتصديق بخاتم الرسالات واتباع نبي الهدى صلى الله عليه وسلم، إذ ذكر قصة هي موجودة في كتبهم السابقة، مما يدل على أنها من الله تعالى, فتضمن هذا التصديق بالقرآن أنه خاتم الكتب والتصديق بالرسول أنه خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم.

---

[١] فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٩٩)

[٢] زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٤٧٨)

ومن الآيات التي أمر الله بها المؤمنين بالاعتبار وأخذ العبرة قوله تعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [آل عمران: ١٣]

قال أهل التفسير :{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأبْصَارِ} فيه وجهان: أحدهما:

أنّ في نصرة الله لرسوله يوم بدر مع قلة أصحابه عبرة لذوي البصائر والعقول.

والثاني: أن فيما أبصره المشركون من كثرة المسلمين مع قلتهم عبرة لذوي الأعين والبصائر.[١]

ثانيا: الخطاب للمؤمنين :

إن امتنان الله على المؤمنين بالإيمان لا يعارض طلب الاعتبار منهم والعظة، فذلك مما يزيدهم إيمانا وتصديقا ويقينا، ولذلك خاطبهم الله بالتفكر والتدبر والنظر والتذكر في آيات كثيرة من كتابه الكريم، ومن ذلك قوله تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]

قال أهل التفسير : خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُمُ المنتفعون بها[٢].

ولقد جاء الخطاب في القرآن مصدرا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) في ما يقارب تسعين موضعا، بل ذكر وصف الإيمان ومشتقاته نحو (آمنوا) و(آمِنوا) و(المؤمنون) في أكثر من ثلاثمئة موضع، عدا ما ذكر من مناداتهم ووصفهم بمقتضيات الإيمان.

كل ذلك يبين عناية الله بعباده المؤمنين، ورحمته بهم.

---

[١] تفسير الماوردي = النكت والعيون (١/ ٣٧٥)

[٢] تفسير القرطبي (١٧/ ٥٥)

ففي قوله تعالى مثلا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وهذا ورد في آيات كثيرة، فيها معاني الاعتبار، والنظر والتفكر، ووصف الله أهل هذا التفكر بأنهم مؤمنون، يؤمنون بكلام الله وصدقه، ويؤمنون بأهمية الاعتبار به، ويؤمنون بانتفاعهم بذلك، وهذا كله من القربات العظيمة التي تدل على تسليم العبد لأمر ربه سبحانه وتعالى .

وجعل تعالى أهل الاعتبار هم أهل العقول والتفكر، والذين هم أهل خشيته.

كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]

وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]

وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

وقال تعالى ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]

وقال تعالى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ٥٤]

فهذه الآيات في مخاطبة أهل العقول والنهى من أهل الإيمان فيها فوائد عدة، منها:

١- بيان عناية الله تعالى بعباده المؤمنين وتربيتهم التربية الإيمانية على ما ينفعهم

٢- أهمية ومنزلة العقول والأفهام في أمر التدبر والتفكر

٣- تميّز الإنسان عن غيره من ذوي الحياة كالبهائم، فإن الله تعالى ميزه بالعقل الذي يصل به إلى ما ينفعه في أمر دينه ودنياه

٤- انتفاع المؤمن بهذا التفكر والاعتبار في زيادة إيمانه وإصلاح حاله وثباته على طريق العبودية لله تعالى.

المطلب الثاني: مجالات الاعتبار في القرآن:

من الأهمية بمكان معرفة المجالات التي دعانا ربنا تعالى للتفكر فيها والتدبر في أمرها، ذلك لأن ما أمر الله بالتفكر فيه، فيه النفع للعباد سواء في معرفة المصالح من هذه الآيات أو في عظم هذه الآيات وأثر هذا التفكر والتدبر على إيمان العبد.

وفي هذا المطلب نذكر بعضا من هذه المجالات، والتي تنتظم في تسع مسائل:

المسألة الأولى: القرآن:

الآيات في الأمر بتدبر القرآن كثيرة سواء بلفظ التدبر أو غيره، وقد سبق شيئ منها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]

وهذا الأمر بالتدبر للقرآن كله وليس لبعض آياته، ففهي كل آياته من الإعجاز ما يبهر العقول سواء في بلاغته ولفظه أو أحكامه وتشريعاته أو تنسيقه وجمله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :"وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِتَدَبُّرِ كِتَابِهِ قَالَ تَعَالَى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} وَلَمْ يَقُلْ: بَعْضَ آيَاتِهِ وَقَالَ: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} وَقَالَ: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي النُّصُوصِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَأَنَّهُ جَعَلَهُ نُورًا وَهُدًى لِعِبَادِهِ وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ – عُثْمَانُ بْنُ عفان وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ – أَنَّهُمْ قَالُوا: " كُنَّا إذَا تَعَلَّمْنَا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ نُجَاوِزْهَا حَتَّى نَتَعَلَّمَ مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ " قَالُوا: " فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا "[1].

[1] مجموع الفتاوى (٤/ ٧٠).

ولابد أن يعلم أن المراد من القرآن وإنزاله على الخلق ليس مجرد التلاوة، وإن ورد فيها الأجر الكبير، كما في قوله صلى الله عليه وسلم :" من قرأ القرآن فله بكل حرف حسنة ."

قال ابن القيم رحمه الله: "وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاظِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}"[1]

وهذا الأمر بالتفكر بآيات القرآن لا يختص بأهل الإسلام بل للناس جميعا بل حتى أهل النفاق والكفر التي كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله : "أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ حَضَّهُمْ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ وَاتِّبَاعِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} . وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} . فَإِذَا كَانَ قَدْ حَضَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى تَدَبُّرِهِ: عُلِمَ أَنَّ مَعَانِيَهُ مِمَّا يُمْكِنُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فَهْمُهَا وَمَعْرِفَتُهَا فَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مُمْكِنًا لِلْمُؤْمِنِينَ؛ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ مَعَانِيَهُ كَانَتْ مَعْرُوفَةً بَيِّنَةً لَهُمْ"[2].

ومما لا يخفى أن فهم أي كلام بدون تدبر معانيه لا يجدي، فكُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ فَالْقُرْآنُ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ

[1] مدارج السالكين (١/ ٤٤٩)

[2] مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٧-١٥٨)

قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنْ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يستشرحوه فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ [1]

المسألة الثانية: التفكر في أمر الأنعام:

قال تعالى {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } [المؤمنون: ٢١، ٢٢]

قال الطبري رحمه الله: (فِي الأنْعَامِ لَعِبْرَةً) تعتبرون بها، فتعرفون بها أيادي الله عندكم، وقدرته على ما يشاء، وأنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يعجزه شيء شاءه (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا) من اللبن الخارج من بين الفرث والدم، (وَلَكُمْ) مع ذلك

(فِيهَا) يعني في الأنعام (مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ) وذلك كالإبل التي يُحمل عليها، ويُركب ظهرها، ويُشرب درّها، (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) يعني من لحومها تأكلون. وقوله: (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) يقول: وعلى الأنعام، وعلى السفن تحملون على هذه في البر، وعلى هذه في البحر [2].

من نظر إلى عموم الحيوانات وجد فيها من المنافع الشيء الكثير:

فمنها ما يركب عليها، ومنها ما يشرب من حليبها، ومنها ما يؤكل من لحمها، ومنها ما يلبس من جلدها وينتفع منه في صنع الفرش ونحوها، ومنها ما يقطع بنا المسافات الطوال، ومنها ما يستعمل بالحروب، ومنها ما يكون للحراسة والصيد، ومنها ما يكون للتربية في البيوت، وهكذا فصلة الحيوانات عموما بالإنسان لها مظاهر كثيرة، ومنها منافع وفيرة.

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢)

[2] «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٩/ ٢٤):

وفي الآية تكلم الله على أمر التفكر بالأنعام وذكر في الجملة ثلاث منافع منها وهي:

الحليب الذي نشربه منها سواء من الإبل أو البقر أو الغنم أو الخيل

واللحوم التي نأكلها، ونتقوى بها في حياتنا وأعمالنا.

والركوب عليها في البر، ونحو ذلك.

والسؤال هنا ما هي العبرة المطلوبة من النظر في هذه النعم التي جعلها الله لبني آدم، لا شك أن العبرة والعظة هي الدلالةً على قدرة الله تعالى ووحدانيَّته[1].

فكل خلق في هذا الكون يدل على قدرته سبحانه ووحدانيته وحكمته، ومن تأمل في الأنعام خصوصا وجد من حكمة الله في خلقها، ومن تدبيره لأمرها الشيء العظيم، مما فيه منافع الناس، وغيرهم، وما يتضمن وجودها من تركيبة بيئة، وتوازن في الأرض، ومصالح كثيرة.

المسألة الثالثة: السماء والأرض : جاءت الآيات الكثيرة في أمر الاعتبار والاتعاظ في خلق السموات والأرض، وجاءت آيات بذكر السموات والأرض جميعا، وأفردت السماء في آيات أخرى. فمن الآيات التي جمعت بين السماء والأرض قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

[1] «الوجيز للواحدي» (ص٦١١):

وقوله تعالى ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]

وفي ذكر السماء لوحدها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]

قال ابن القيم رحمه الله :"وَنَوع سُبْحَانَهُ الآيات فِي هَذِه السُّور فَجعل خلق السَّمَوَات والارض وَاخْتِلَاف لُغَات الامم والوانهم آيَات للْعَالمين كلهم لاشتراكهم فِي الْعلم بذلك وظهوره ووضوح دلَالَته".

فالمراد بذكر هذه المخلوقات هو الحث على التأمل في حكمته سبحانه من خلقها [١]

ففي مثل قوله تعالى {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يقال: تفكر فلان في كذا وأجال فيه، والمعنى: هلَّا تفكَّروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها من أحوال ما عداها من سائر المخلوقات، وهي لفظة استبطاء، كأنه قيل: قد كان ينبغي لهم أن يتفكروا، فإنهم لو تفكروا لقالوا: (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق).[٢]

المسألة الرابعة: الإبل:

قال تعالى ﴿فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]

أمر الله تعالى بالتفكر في الإبل، ثم أتبع ذلك الأمر بالتفكر بالسماء والجبال والأرض، ومن نظر في هذه المخلوقات العظيمة والتي هي أجناس مختلفة،

[١] «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٥/ ٨٢)

[٢] «الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٥/ ١٨٥)

فجنس من الحيوان المخلوق الذي له منافع كثيرة، وجنس السماء التي تظل الخلق وهي في حال العلو وتتضمن آيات كثيرة، ثم الجبال الصلب الرواسي، ثم البسيطة التي نعيش عليها، فكأن النظر في الآيات كان لكل ما هو حولنا وننتفع به، ويستدل به على غيره.

ومن حكم هذا الجمع بين هذه المخلوقات ما ذكره الزركشي رحمه الله بقوله :" يُقَالُ مَا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِبِلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْجَوَابُ أنه جَمَعَ بَيْنَهُمَا عَلَى مَجْرَى الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ بِالنِّسْبَةِ إلى أهل الوبر فإن كل انْتِفَاعِهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ مِنَ الْإِبِلِ فَتَكُونُ عِنَايَتُهُمْ مَصْرُوفَةً إِلَيْهَا وَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِأَنْ تَرْعَى وتشرب وذلك بنزول المطر وهو سبب تقلب وجوههم في السماء ثم لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَأْوَى يُؤْوِيهِمْ وَحِصْنٍ يَتَحَصَّنُونَ بِهِ وَلَا شَيْءَ فِي ذَلِكَ كَالْجِبَالِ ثُمَّ لَا غِنَى لَهُمْ لِتَعَذُّرِ طُولِ مُكْثِهِمْ فِي مَنْزِلٍ عَنِ التَّنَقُّلِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى سِوَاهَا فَإِذَا نَظَرَ الْبَدَوِيُّ فِي خَيَالِهِ وَجَدَ صُورَةَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ حَاضِرَةً فِيهِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَذْكُورِ"[1]

وبخصوص الإبل بالذات وأوجه التفكر فيها قال أهل العلم : والمعنى: أفلا ينظرون إلى الإبلِ نظر اعتبارٍ، كيف خُلقت للأثقال، وحملها إلى البلاد البعيدة، وبروكها لتُحَمَّل، ونهوضها بما حملتْه، وسُخِّرتْ لكلّ من قادها، حتى الصبيّ الصغير، وأُعطيت الصبرَ على العطش عشرة أيامٍ فأكثر، وجُعلتْ ترعى كلَّ نباتٍ في المفاوز، دون غيرها منَ الدوابّ، وإنما لم يُذكر الفيلُ، والزرافةُ، والكدكند وغيرها، مما هو أعظم من الجمل، لأن العرب لم يروا شيئاً من ذلك ولا عرفوه"[2]

[1] «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٥)

[2] «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (١/ ٦٠٩)

المسألة الخامسة: الجبال:

الجبال خلق عظيم من خلق الله تعالى، جعلها الله رواسي للأرض كما قال سبحانه سمح ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وقال تعالى ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]

فهذه الجبال الرواسي جعلها الله كذلك لئلا يميد خلقه الذي على ظهرها [١]. لا تضطرب بكم، ولا تتحرّك يمنة ولا يسرة، ولكن تستقرّ بكم.

ومثل هذا قوله تعالى آمرا بالتفكر في أمر الجبال﴿اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١]

فهذه نعم عددها الله عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم، و«الأكنان» جمع كن وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك[٢].

المسألة السادسة: الليل والنهار:

من الآيات الكونية العظيمة التي خلقها الله وجعلها لنا آية عظيمة نتأمل فيها آثار قدرته وحكمته وقوته سبحانه آية الليل والنهار، يقول تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

[١] جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٧/ ١٨٣). وانظر (١٣٣/٢٠).

[٢] انظر: «تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٣/ ٤١٢):

مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

قال ابن كثير رحمه الله :" يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جُرْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً وَشُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا، هَذَا فَنٌّ وَهَذَا فَنٌّ آخَرُ، فَفَاوَتَ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَشْتَبِهَا، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَتَزَايَدُ نُورُه وَجِرْمُهُ، حَتَّى يَسْتَوْسِقَ وَيَكْمُلَ إِبْدَارُهُ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فِي تَمَامِ شَهْرٍ ، وَقَوْلُهُ: {إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أَيْ: تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الْأَعْرَافِ: ٥٤] ، وَقَالَ: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [يس: ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الْأَنْعَامِ: ٩٦] ، وَقَالَ هَاهُنَا: {لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} أَيْ: عِقَابَ اللَّهِ، وسخطه، وعذابه "[١].

ويقول تعالى في هذه الآية العظيمة التي يراها الناس في كل يوم وليلة عيانا في حياتهم : ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦] فهذه الآية آية اعتبار وتنبيه، ولفظه الاختلاف تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفه وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض[٢]

[١] «تفسير ابن كثير ت سلامة» (٤/ ٢٤٨) بتصرف يسير.

[٢] «تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٣/ ١٠٦):

وفي آية ثالثة يبين تعالى هذا التقلب بين الليل والنهار وأن فيه العبرة والعظة للمتأمل قال تعالى ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]

فهو سبحانه يُصَرِّفُهُمَا فِي اخْتِلَافِهِمَا وَتَعَاقُبِهِمَا يَأْتِي بِاللَّيْلِ وَيَذْهَبُ بِالنَّهَارِ، وَيَأْتِي بِالنَّهَارِ وَيَذْهَبُ بِاللَّيْلِ.[١]

وقوله تعالى(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأولِي الأبْصَارِ)أَيْ: لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى[٢]

المسألة السابعة:

هلاك الظالمين : فالصراع بين الحق والباطل سنة من السنن الكونية التي جعلها الله في البشر، وذهاب الباطل واضمحلاله آية عظيمة أمرنا الله بتدبرها والاعتبار بها يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]

ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحُصُون من الله، فأنزلهم الله – تعالى – منها، وسلط عليهم من كان ينصرهم، وأنهم هدموا أموالهم بأيديهم، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه.[٣]

---

[١] «تفسير البغوي – طيبة» (٦/ ٥٤):

[٢] «تفسير ابن كثير ت سلامة» (٦/ ٧٣):

[٣] «اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٦٨):

وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]

واللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ أَيْ: يُقَوِّي مَنْ يَشَاءُ أَنْ يُقَوِّيَهُ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ تَأْيِيدُ أَهْلِ بَدْرٍ بِتِلْكَ الرُّؤْيَةِ، إِنَّ فِي ذلِكَ أي رُؤْيَةِ الْقَلِيلِ كَثِيرًا لَعِبْرَةً فِعْلَةً مِنَ الْعُبُورِ، كَالْجِلْسَةِ مِنَ الْجُلُوسِ. وَالْمُرَادُ الِاتِّعَاظُ، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ: عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَوْعِظَةٌ جَسِيمَةٌ.[١]

إنّ في إهلاك الله للظالمين آية عظيمة من آيات الله في الاتعاظ والاعتبار، وفيه تسلية للمؤمنين ببيان عاقبة الظلم، وأن الباطل يذهب مهما طال وجوده، ويضمحل مهما قويت شوكته، وأن العاقبة للمتقين، وهذا جزء من حفظ الله لدينه وعنايته بشريعته.

المسألة الثامنة: الثمار:

﴿نُبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]

جَعَلَ مَقْطَعَ هَذِهِ الْآيَةِ التَّفَكُّرَ لِأَنَّهُ اسْتِدْلَالٌ بِحُدُوثِ الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ النَّبَاتِ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهِ الْقَادِرِ الْمُخْتَارِ[٢].

وفي قوله تعالى آخر الآية {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} أي إِنَّ فِي إِخْرَاجِ اللَّهِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ مَا وَصَفَ لَكُمْ {لَآيَةً} لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ وَعَلَامَةٌ بَيِّنَةٌ. {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} يَقُولُ: لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ مَوَاعِظَ اللَّهِ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي حُجَجِهِ، فَيَتَذَكَّرُونَ وَيُنِيبُونَ [٣].

---

[١] «فتح القدير للشوكاني» (١/ ٣٦٩):

[٢] «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٨٤).

[٣] «تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر» (١٤/ ١٨٣):

فمن تأمّل وتفكر في آيات الله الكونية ومنها هذه النبتات التي يسقيها الله بماء واحد، وهي في تربة واحدة، تتضمن هذه التربة نفس المعادن والتركيبات، ومع ذلك يخرج النبات مختلفا، في لونه وطعمه، وشكله، فمن تأمل ذلك كان فيه من الاعتبار والاتعاظ ما يكون سببا للهداية والإنابة والتوبة والأوبة، فيصلح حال العبد ومآله بإذن ربه.

المسألة التاسعة: في انتصار الله لرسله ولعباده المؤمنين:

نصرة الله لعباده المؤمنين سنة كونية جعلها الله تعالى ، نصرة لدينه وأوليائه، نص الله عليها في أكثر من آية كما قال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]وفي أمر التدبر في هذه المسألة العظيمة قال تعالى { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [آل عمران: ١٣].

والعبرة من هذه الآية التي ذكرها الله تعالى :أن الفئةَ القليلةَ الضعيفةَ غَلَبَتِ الفئةَ القويةَ الكثيرةَ، وهذا لا يكونُ إلا بنصرِ اللَّهِ كما قال الله جل وعلا [١].

والحديث في الآية عن غزوة بدر فإن الله جعل ما وقع في "بدر" من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا مع قلة عددهم، وفئة

[١] «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (١/ ٥٥١).

الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزموهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان- بحسب الأسباب الحسية- الأمر بالعكس [1].

وفي آيات أخر ذكر الله لنا قصة فرعون وما فيها من العبرة والعظة فقال تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات: ١٧ – ٢٦]

ختم الله سياق قصة فرعون بقوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) أي: اعْتِبَارا لمن يخاف الله تَعَالَى[2].وأن فِيمَا اقْتَصَصْنَاهُ مِنْ أَمْرِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ، وَمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ بِفِرْعَوْنَ مِنَ الْخِزْيِ، وَرَزَقَ مُوسَى مِنَ الْعُلُوِّ وَالنَّصْرِ عِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى وَذَلِكَ أَنْ يَدَعَ التَّمَرُّدَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّكْذِيبَ لِأَنْبِيَائِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ مَا نَزَلَ بِفِرْعَوْنَ، وَعِلْمًا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، فَاعْتَبِرُوا مَعَاشِرَ الْمُكَذِّبِينَ لِمُحَمَّدٍ بِمَا ذَكَرْنَاهُ، أَيِ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الْمَعْنَى الْجَالِبِ لِلْعِقَابِ، شَارَكْتُمُوهُمْ فِي حُلُولِ العقاب بكم [3].

وفي قصة إجلاء اليهود من المدينة قال تعالى :{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ

[1] «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٩٦٣).
[2] انظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٠).
[3] انظر: «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (٣١/ ٤٢):

حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } [الحشر: ٢]

ختم الله الآية بالتنبيه على أمر الاعتبار بهذه الحادثة العظيمة التي حصلت حين نقض اليهود عهدهم، واستمروا في مكرهم وكيدهم.

قال ابن جرير رحمه الله:" يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَاتَّعِظُوا يَا مَعْشَرَ ذَوِي الْأَفْهَامِ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَهُمْ فِي حُصُونِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ مَنْ وَالَاهُ، وَنَاصِرُ رَسُولِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَأَهُ، وَمُحِلٌّ مِنْ نِقْمَتِهِ بِهِ نَظِيرَ الَّذِي أَحَلَّ بِبَنِي النَّضِيرِ. وَإِنَّمَا عَنَى بِالْأَبْصَارِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ، وَذَلِكَ أَنَّ الِاعْتِبَارَ بِهَا يَكُونُ دُونَ الْإِبْصَارِ بِالْعُيُونِ"[1].

إنّ الاتعاظ والاعتبار مجالاته كثيرة وسبله وفيرة، وسواء كان ذلك في الآيات الكونية الآفاقية أو النفسية، أو فيما خلقه الله من مخلوقات، وكوّن من الكائنات، ففي كل ذلك آيات على بديع خلقه، وتمام إتقانه وحكمته سبحانه وتعالى.

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر» (٢٢/ ٥٠٣).

خاتمة البحث:

بعد هذه التطوافة في أمر العبرة والاعتبار، اخلص إلى أهم النتائج في ذلك وهي:

١- العبرة والاعتبار منهج شرعي جاء الحث عليه في آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه

٢- أهمية أمر الاعتبار في استقامة السلوك وإصلاح الخلل، والتحلي بالمكارم

٣- خاطب الله تعالى الخلق بأمر العبرة والاعتبار لما فيهما من مصالح عدة للعبد في أمر دينه بل ودنياه

٤- تنوعت مجالات الاعتبار في كلام الله تعالى بين الآيات العظيمة كالشمس والقمر وبين غيرها مما هو دونها.

٥- من مجالات الاعتبار المهمة النظر في قصص السالفين والاستفادة منها في حياتنا الحاضرة فالتاريخ أحداث متكررة

٦- النظر في الآيات الحاثة على الاعتبار والاتعاظ والوقوف على أسباب النجاح والفشل على ضوء ذلك

٧- التنوع في مجالات الاعتبار يدل على أهمية هذا الباب وعظم شأنه وأثره

٨- ليس للإنسان ابتداءً أن يطلب الاعتبار ويُعمل عقله في البحث عن ذلك وبين يديه كتاب الله المليء بالعظات والعبر.

٩- هناك مجموعة من الألفاظ التي تدل على أمر الاعتبار والاتعاظ والعبرة في كلام الله تعالى مما يدل على أهمية هذا الباب ومزيد العناية به

١٠- أثر الاعتبار في زيادة إيمان العبد، وإصلاح قلبه.

فهرس المصادر والمراجع:□

١. الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف – الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م).

٢. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن، دار المعارف للنشر، ط. الثالثة.

٣. البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، (١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م).

٤. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط. الأولى، (١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م).

٥. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون

الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م)

٦. التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، الدار التونسية للنشر– تونس، (١٩٤٨هـ).

٧. تفسير البغوي، البغوي، الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر– عثمان جمعة ضميرية– سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط. الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط. الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.

٩. تفسير القرآن، السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار، تحقيق: ياسر بن إبراهيم – غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن– الرياض، ط. الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

١٠. تفسير الماوردي، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.

١١. التفسير والمفسرون، الذهبي، محمد السيد حسين، مكتبة وهبة – القاهرة.

١٢. تهذيب اللغة، الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط.الأولى,(٢٠٠١م).

١٣. التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، زين الدين محمد، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت – القاهرة، ط. الأولى، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط. الأولى (١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م).

١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط. الأولى، (١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م).

١٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: أحمد البردوني – إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط. الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

١٧. جواهر القرآن، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم – بيروت، ط. الثانية، (١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م).

١٨. درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط. الثانية، (١٤١١ هـ – ١٩٩١ م).

١٩. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط. الأولى، (١٤٢٢ هـ).

٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط. السابعة والعشرون، (١٤١٥هـ /١٩٩٤م).

٢١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني، محمد بن ناصر الدين، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع– الرياض، ط. الأولى، (١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م).

٢٢. سنن الترمذي، الترمذي، محمد بن عيسى الضحاك، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، (١٩٩٨م).

٢٣. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة – الرياض، المملكة العربية السعودية، ط. الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٤. الطرق الحكمية، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مكتبة دار البيان.

٢٥. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد – مجمع الفقه الإسلامي – جدة، المملكة العربية السعودية، ط. الثانية، (١٤٢٦هـ).

٢٦. العين، الخليل الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو، تحقيق: د مهدي المخزومي – د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٧. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم – بيروت، لبنان، ط. الأولى، (١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م).

٢٨. فتح القدير، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط. الأولى، (١٤١٤ هـ).

٢٩. الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع – المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط. الأولى، (١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م).

٣٠. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، أحمد أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: صلاح باعثمان – حسن الغزالي – زيد مهارش – أمين باشة، دار التفسير– جدة، المملكة العربية السعودية، ط. الأولى.

٣١. لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، علاء الدين علي بن محمد، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. لأولى، (١٤١٥ هـ).

٣٢. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل النعماني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط. الأولى، (١٤١٩ هـ –١٩٩٨م).

٣٣. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، دار صادر – بيروت، ط. الثالثة، (١٤١٤ هـ).

٣٤. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف– المدينة النبوية، (١٤١٦هـ–١٩٩٥م).

٣٥. المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، أبو موسى المديني الأصفهاني، محمد بن عمر، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، ط. الأولى، (١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م).

٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. الأولى، (١٤٢٢ هـ).

٣٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة، (١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م).

٣٨. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو شامة المقدسي، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر– بيروت، (١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م).

٣٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد–وآخرون، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط. الأولى،(٢٠٠١ م).

٤٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس الفيومي، أحمد بن محمد.

٤١. مفاتيح الغيب، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط. الثالثة، (١٤٢٠ هـ).

٤٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، دار الكتب العلمية – بيروت.

٤٣. المنصف للسارق والمسروق منه، ابن وكيع، الحسن بن علي الضبي، تحقيق: عمر خليفة بن ادريس، جامعة قات يونس – بنغازي، ط. الأولى، (١٩٩٤م).

٤٤. ناهل العرفان في علوم القرآن، الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. الثالثة.

٤٥. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط. الأولى، (١٤١٥هـ)

الفهرس

Contents

خلاصة البحث ٤٤٨
المقدمة ٤٥٠
أهمية الموضوع: ٤٥١
منهجية البحث: ٤٥١
المبحث الأول: ٤٥٤
معنى العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا وأهميتهما : ٤٥٤
المطلب الأول: العبرة والاعتبار لغة واصطلاحا: ٤٥٤
المطلب الثاني: أهمية الاعتبار في حياة الإنسان: ٤٥٦
المبحث الثاني: ٤٥٨
أهمية تدبر القرآن وأثره على المسلم: وتحته مطلبان : ٤٥٨
المطلب الأول: أهمية تدبر القرآن: ٤٥٨
المطلب الثاني: أثر تدبر القرآن على المسلم: ٤٦١
المسألة الأولى: أنه امتثال لأمر الله تعالى لعباده بتدبر كتابه والنظر فيه والتمعن في آياته.. ٤٦١
المسألة الثانية: أن في ذلك سلوكا لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، وطريقته في التعامل مع كلام ربه. ٤٦٢
المسألة الثالثة: أنه سبيل السلف وعلى رأسهم الصحابة رضي الله عنهم في عنايتهم بالقرآن علما وعلما وتدبرا. ٤٦٢
المسألة الرابعة: أنه سبب لزيادة الإيمان وصلاح العبد واستقامة أموره: ٤٦٣
المسألة الخامسة: في تدبر القرآن الوقوف على دلالاته البلاغية الإعجازية: ٤٦٥
المسألة السادسة: الوقوف على عناية الله بعباده ورحمته بهم فيما شرعه من أحكام، وحدّ من حدود: ٤٦٦
المسألة السابعة: تأمل ما تضمنه القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم ٤٦٧
المسألة الثامنة: اجتناب الأفهام الباطلة لمعاني القرآن الكريم: ٤٦٧
المبحث الثالث : ٤٦٩
المخاطب بالاعتبار ومجالات ذلك ٤٦٩
المطلب الأول: المخاطب بالاعتبار في القرآن الكريم: ٤٦٩
أولا: عموم الناس: ٤٦٩
ثانيا: الخطاب للمؤمنين : ٤٧٢

المطلب الثاني: مجالات الاعتبار في القرآن: ٤٧٥
المسألة الأولى: القرآن: ٤٧٥
المسألة الثانية: التفكر في أمر الأنعام ٤٧٧
المسألة الرابعة: الإبل: ٤٧٩
المسألة الخامسة: الجبال: ٤٨١
المسألة السادسة: الليل والنهار: ٤٨١
المسألة السابعة: ٤٨٣
المسألة الثامنة: الثمار: ٤٨٤
المسألة التاسعة: في انتصار الله لرسله ولعباده المؤمنين: ٤٨٥
خاتمة البحث: ٤٨٨
فهرس المصادر والمراجع: ٤٩٠
الفهرس ٤٩٩